سميّة طليس

حنين إلى الخطايا

رواية

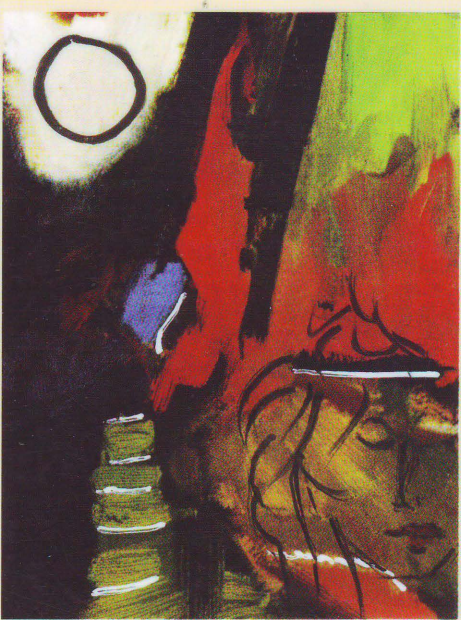

سميّة طليس

حنين إلى الخطايا

(رواية)

دار الفارابي

الكتاب: حنين إلى الخطايا
المؤلفة: سميّة طليس
الغلاف: فارس غصوب
الرسوم الداخلية بريشة المؤلفة

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) – فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ١١/٣١٨١ – الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: أيار ٢٠١٦
ISBN: 978-614-432-568-1

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونيًا عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

إهداء

إلى الذّات

التى لا يحترفها

تأويل...

تقديم

إذا أردْتَ أن تصف سميّة طليس، قلت: إنّها باحثة باحثة، باستمرار، عن أفق جديد تستطيع فيه أن تطلق جناحيها الواسعين،. ولا تُطلق هذه الصفة لجهة دراستها الأكاديميّة فقط، ولكن لجهة كتابتها الإبداعيّة أيضًا.

لا ترتاح سميّة أبدًا إلى وسادة البارحة، وسادة البارحة تنتمي إلى البارحة، إلى زمن تقضّى. هي بنت ساعتها الراهنة تحتاج إلى وسادة تتناسب وطموحات هذه الساعة.

كانت مجموعتها القصصيّة القصيرة جدّا، الموسومة بعنوان: «هواجس إمرأة» بداية الطّريق الذي سرعان ما تمخّض عن بداية جديدة مع روايتها الأولى الموسومة بعنوان:«حنين إلى الخطايا». وما ستكتبه سميّة، في مستقبل الأيام، سيكون بداية أيضًا، ولن نشهد النهاية. طاقة سميّة الإبداعيّة احتقان

وتفجّر مستمرّان، ولن تكون غير ذلك. تُراجع كلّ يوم رصيدها الثقافيّ، تضعه في الشمس، تتأمّله بأناة، تتفحّص نقاط قوّته مثلما تتفحّص نقاط ضعفه. تقول في نفسها: ما زلت في بداية الطّريق، الطّريق الذي لا ينتهي. ولن أكون «أنا»، إذا لم أتجاوز هذه الـ«أنا».

ولعلّ أسلوبها الكتابيّ في هذه الرواية، أو في مجموعتها القصصيّة السابقة، هو عين هذا التطلّع إلى المستقبل، أسلوبها قابليّة لولادات متجدّدة... راقب طريقتها الكتابيّة في هذه الرواية، قارنها بطريقتها في المجموعة القصصيّة، أو في خواطرها السابقة على هذه المجموعة، فماذا تجد؟ تجد ثباتًا، وتجد تحوّلًا داخل هذا الثبات ، إنّه سرّ سميّة الإبداعي المكين. إقرأ كلّ ما كتبتْهُ، تلمس حضور شخصيّتها بقوّة فيه. صحيح أنّك لن تجد سميّة نفسها ، ولكنّك ستجد سميّة المتخلّقة من سميّة... وإذا عنى هذا شيئًا، فإنّه يعني أنّك لن تلحظ في كتابتها ظلًّا لأيّ كاتب كبير ترتع سميّة في نعمائه. استطاعت نحلة سميّة أن تتمثّل كلّ ما وجدته في أزاهير الكبار من رحيق، أعادت إنتاجه عسلًا هو عسل تلك النحلة لا غيرها،

وإن كان هذا العسل محتاجًا إلى متذوّق صبور، غير مستعجل، يستطيع أن يبذل الجهد الوافي المطلوب لكي يتمثّل ذلك العسل، ويتعرّف نكهته الفريدة.

الدكتور علي مهدي زيتون

٢٠١٦/٢/٨

هناك في حمص، على جدار الماضي تعملقت تلك الصورة العائليّة يافعة حرّة بعفّة وطيبة، استطال معها النضال بالحواس. كانت تلامسها مريم مرارًا بأنامل جديرة بالحنوّ، تقهر عنها الغبار المثقل بقلّته، والمتسرّب مع نسيم تلك المدينة الفضفاضة بطينتها وأصالتها.

اعتادت مريم على اقتحام جوّ الغرفة بصمت تتراكم في حناياه تشكيلات الفرح الذي تترمّد في حضرته الشدّة. تمرّ على مقتنياتها برويّة إيمانيّة هادلة لتهبها الرضا، وفي ذلك تنافس تراتيل المآذن، وخشوع أجراس الكنيسة في حيّ الحميديّة المقارب لمنزلها، تعيد توضيب الكتب لتتواءم ورغبتها، وتستبدل أمكنة الأثاث لتخدم فوضاها البسيطة العابرة. إنّها تبدو متيقّنة أنّ لعبة الحياة متقلّبة، لا تهنأ بمستقرٍ.

واليوم، بعد عودتها إلى المنزل خاوية الوفاض إلّا من خسارة وجودها، كم تمعن في التحديق إلى الأشياء كلّها، وكأنّها تتعفّف في محضر الوداع الأخير! تغوص في الجرح لتستعيد ما تناثر من اللقاءات العائليّة على مفترق الزمن، وإرادة القدر. فضحكة طفلها «محمّد» لا تزال تلاحقها وتطاردها وتعاتبها، تعلق في القراني، وبين الشرفة والجوريّة، لا بل بين مسام الدرب والقلب والحنين. وهي تدرك أنّ ما انصرم لن تقرأ عودته إلّا في الرغبة والشوق.

كان وجه «محمّد» يغالب الفجر كلّ صبيحة، فيدلي بخصوصيّته ليصطنع الحياة قُبلًا على شفاه والديه، وتليه الشمس صلاة يركد في حضنها الجميع بوقار، لأنّها الأنوثة الخالصة التي تتقن صوغ جبهتها حربًا ضدّ من يتحايل على كبريائها.

راحت الأمّ تطرح جسدها مرارًا أمام دارها، بعد العودة إليها، تستنشق الأيّام من التراب الذي حبا محمد فوقه بنعومة رسمت آثارًا طيّبة تخضرّ في البال. ثمّ تنهض بعدها تشدّ خطاها

إلى غرفة ابنتها، ففيها الألعاب لا تزال ملقاة في المكان، تحزّ الانتظار، لم يقلّبها أحد، ولم يعدْ يخترقها النهار بلمسة طفلة غفت خلف غبار الحرّيّة.

تقف الأمّ معاتبة عند كلّ ما تقضّى، تحار بانسياب، أيّ قبر تآخت فيه عظام طفلها مع مثيلاتها في الوطن؟! مَنْ عبث برقّتها حتّى تاهت عن الدار والهويّة والوطن؟ تبعث الأمّ، ومع جولة كلّ ندى، تبعث كتابها وحروفها انكسارًا:

تحترق الظّلال!

ووداعتها وجع يخضرُّ في البال

ونحن، يا ولدي، يعمّدنا الجنون

ينسلّ فينا ما بين حين وحنين!

يغتسل من ضيا صُبحك عند محراب الأنين

هناك سمعْتُكَ! تحصي أناملَكَ

وروحكَ وشتاتك لتدوِّن حلمًا

بلا نيّة... وتضيع...

وأنا خلفك، شبه آه مكوّرة بلا نيّة

أُوْلِمُ الموتَ والدموع، وأشمّ شرايينك فيّ فأضيع....

ابن العامين، على إزار عمره نهضت فاتحة المستقبل، دنت فتدلّت حتّى نمت بين أنامله وعدًا ويواقيت ممهورة بالشغف إلى غدٍ من فصيلة أخرى، غدٍ يؤرّخ للنّور، ولظلّه الميّال في يوم الحالمين بصدى جديد، صدى يرسم آخر فاصلة في كمال حيرة البال. هكذا رسمته أمّه شعارًا لرحلتها التي اشتهتها معه، إذ يختمر الزاد حبًّا للحياة، واندفاعًا لتقويمها بكلّ تأنّ.

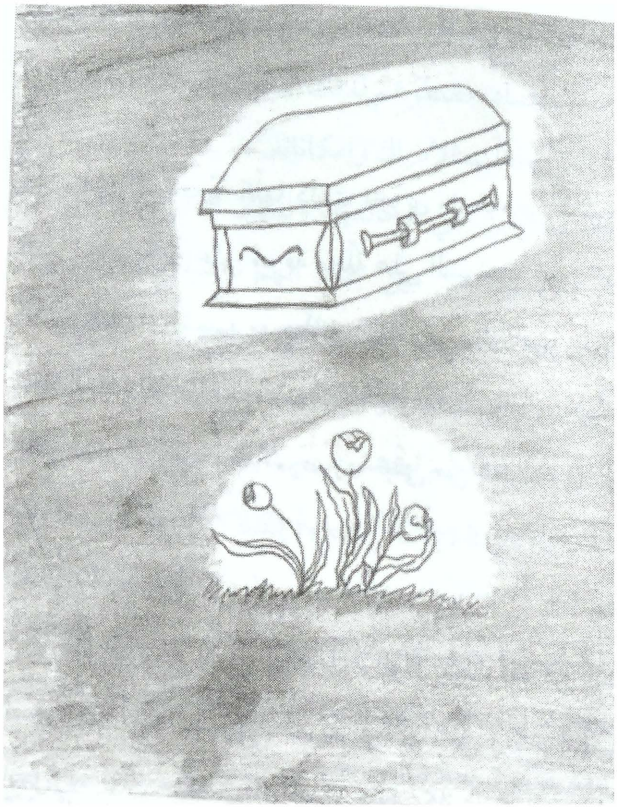

هذه المشهديّة كلّها كانت تجري بسخاء في ذاكرة مريم التي تجثم بكدر على شرفة مطلّة على السراب، على الماضي الذي التهمه الشيب بمحطّاته الباسمة، والحاضر المضمّخ بلغة الدم والإجرام، والمنهك بالتناقضات، وعلى المستقبل الذي تهاوت أطره وعناصره، وما تبقّى من عصمته إلّا أوهام سوداء مرعبة تجتاح الصدر، ومعقل الفكر، لتترك الجسد حالًا مستسلمة للفجيعة.

ظلّ الصراخ يفوح بنكهات وألوان متفاوتة، من الشقق المجاورة، لكنّه لم يرجع لمريم قيامتها، بل رسّخ التصاقها بالمرارة، لأنّه حلقة ربط أصيلة فيها. كانت تتوسّم فيه نبأ متألّمًا، مرّ طيفه خيالات عهدتها عندما أُحيلَ حيّها خطًّا ساخنًا، حيث العمليّات الفدائيّة انتهبت البشر قبل الذكريات والأحلام

والحجر. كانت مريم تدرك أنّ المواقف يومها، تحشر المرء في زاوية الإغماء المتنصّل من الذات، وتسحق الفقراء والمساكين الذين انقادوا طوابير إلى المجهول، يشبهون الجراد المفطوم عن درب الحصاد، تضطرّهم لذلك الحركة غير العاديّة للزّمن، الحركة التي تخطّت الإدراك وإمكاناته.

كان مساكين حيّ الخالديّة، وبستان الديوان، وضواحي حمص ينهضون من بين بقايا الهمّ وأشغالهم الضريرة، وينساقون إلى مظاهرات الجمعة التي تتيه مع صداها الهرم.

في شارع النهضة، ودوار القاهرة، وبين الجموع المشدودة للحماس المؤقّت، لم تحضر مريم بالرغم من تكرار تهديدها. لقد وقف القدر وحيدًا يتلاعب باحتفال الضوء الذي يتشتّت الناس عند احتمالات تحقّقه. هنا وهناك يفلت المتظاهرون مع زعيقهم وتصفيقهم، وينجرّون خلف الريح المالحة، يتصايحون وتزدحم بينهم شعارات الحرّيّة والشتيمة والانتقام، وبعدها يقيمون صلاة الجمعة.

خرجوا طوابير لا دبيب أنس بينهم، سوى شعار «الحرّيّة» يطعمونه، ويحتسونه مع الهواء عن غير قصد، لم يلمسوه وجهًا

ولا ناصية، إلّا موتًا شرّعوا له أعينهم مسارب، ومريم بينهم كدّت لتسيّج حدودها الفكريّة بشيء من الاستيعاب، بعد أن طال الرصاص المكان بتفاصيله، حتّى أضلّ وجهته، واشكلت عليه الأولويّات.

قبل يومين من العاصفة، كانت ابنتها البكر «فاطمة» ذات العشر سنوات، تسألها: «من هي الحرّيّة؟»

غصّت الأمّ: «قصّتها عقدة لا قرار لها، وإذا أخبرتك عنها، لن تفهميها أبدًا!»

أصرت فاطمة على الإستفسار: «هل هي امرأة تشبه نساء الحيّ، وجدّتي، ومعلّمتي؟! هل تشبهك يا أمّي؟! البارحة شاهدت على شاشة التلفاز الرجل الضخم صاحب اللحية السوداء، سمعته يقول: «أبشروا! أبشروا بالحرّيّة! ستأتي لتغيّر كلّ شيء، ستحيون معها بأمان وفكر وسلام». هل حقًا كذلك؟!»

غاصت مريم بضياعها، وأفلت منها نظرها ليجوب الأفق المترع بالضبابيّة والترقّب.

- ما بالكِ يا أمّي؟! هل حقًّا سنفرح مع الحرّيّة؟ هل ستحضر لنا الدمى الرائعة، وكلّ ما أشتهيه أنا وأخي

محمّد من أطعمة وحلوى؟! هل ستتدفأ في حضنها، ونستبدل بهذا المنزل منزلًا آخر جميلًا؟!

مسّدت مريم شعر ابنتها بخفّة الحنان، وفرّت من فمها ابتسامة تسحّ بالوجع: «بلى حبيبتي، سيتغيّر كلّ شيء، ستتبدّل القيم والمقاييس، سيتلوّن البشر وفعالهم، ستُغتال الحروف في أفواهنا وموطننا، وبعيوننا لن نجني إلّا التعب، سيرقص هؤلاء فوق جثثنا!».

لامست فاطمة وجه أمّها بكفّين خفيفتين تبدّتا وكأنّهما تتبخّران فوق تراب شاسع اندلعت عند جنباته حرب صامتة: «لا أفهم شيئًا يا أمّي! والدي نهرني عندما دنوت منه استعطفه وأسأله، وأنت لا أدري ما الذي تقولينه الآن! ما الذي حلّ بكما؟!

تنهّدت الأمّ: «غدًا، عندما تنجلي الصورة، وتصبح الدنيا رمادًا نخسر في ظلّه كياننا، وموازين القدرة، ستعرفين حينها ما هي الحرّيّة العائمة فوق جلودنا، والتي تورد في حساباتها الاحتمالات والفرضيّات برمّتها، إلّا معادلة الشعب ومصيره.»

***

تضاعفت الأصـوات المتهافتة مع الصدى من ناحية المعارك. في تلك اللحظة، انكمشت جوارح مريم، وراحت تتراكم الرواسب النفسيّة في أعصابها، وكذلك النوبات المستعصية على التحليل والفهم، وكأنّها تتوارثها ليوم هي أحوج ما تكون فيه إلى النحيب، من دون الإضطرار إلى معونة ضغوطات أو صدمات أخرى. فقط في وقفة تجريديّة مع الذات، ستتكشّف لها الوقائع والحقائق، فتقف عارية من الصوت والكلمات والخوف.

بعد احتراق الحروف في حنجرتها من رهبة الرصاص، ما كان إلّا أن تشبّثت بطفلها محمد لتقيه بردائه الأزرق من دوّامة العويل الصاخب خارجًا، وهو يعوم بين يديها بأدنى الحركات، لا يبالي بمدارات الموت المبهم والدمار الساحق، إنّه روح منسابة في متن الحياة المكتنزة بالخصوبة.

صرخت بوهلة: «إلى أين ألوذ ببقايا روحي، بولديّ، ومحيطي بات أطلال أحقاد تجتاح الهشيم كله، لتطوّق الذات الفاعلة، وتلسعها أخيرًا، كالعقرب المحتشد على نفسه في ضيق، إذ ينتصر لنفسه بلسعها وعتقها بالانتحار؟!»

وأكملت تتعثّر بالوجع: «من ذاك أمات الحبّ، وأحاله ملحًا يتسرّب إلى شطّ الأحياء؟! من أدمى عناقيد الأرض بهواء صلب أثقلها، فما عادت تنضح بالخيرات والنيّات؟!»

تداعى بعض أهالي حيّ الخالدية إلى المدرسةِ الابتدائيّة للصّبيان جرّاء هول المجريات، والغالبيّة أطفال، حشروا جميعًا في القاعة الخاصّة بالندوات الثقافيّة مع أنينهم، كانت الأجواء والآثار فيها توحي بأنّ غزوة رماد قد توصّت بالمكان، فأعادت تشكيله وفق رؤية غامضة. المكتبة برصيدها العلميّ والأدبيّ والقوميّ والحضاريّ أمست كومة، جسرًا مضطربًا يطأه الحفاة، فقط عمالقة التاريخ «المتنبي، والجاحظ، وابن سينا، والرازي، والسيّاب....» وحدهم لم ترسب أجسادهم، كانوا يعبرون خلف أسمائهم ونتاجاتهم الفكريّة بحسرة، لأنّ الهستيريا قد استولت على الأمانات، ولم تنس الأطفال بعد...

جدّفت مريم بين يديّ زوجها عنادًا ومقاومة، مصرّة على أن تلزم الدار لأنّ وصالها ريح رخاء وبلاء، إلى أن قادها الزوج أسيرة، وولديها، من قمّة ثوبها. كان دمعها يدوم ولا يشفى، وهي في طريقها إلى تلك المدرسة. كان يتردّد فيها ما يقرأه نداء الحيرة من فعال زوجها المجبولة بالعنف والقسوة، لقد أضيفت إلى الأرقام في القاعة العابقة بالجرح، وراحت تدوس سهوًا جثث الكتب كما غيرها، وطفلها يتلوّى على صدرها، والإبنة تلتصق بعباءتها تتسابق مع الأحداث، ولا تقرّ بعلامات الهزيمة.

هنا أمّ أهملت جسدها عنوة، وفي حجرها طفلة تجدّ في حزم أنفاس النعاس، وهناك عجوز تكوّر على ذاته ورميم عظامه، يتمتم مستشعرًا بالموت فوق نحره يجري، وقربه صبيان بشعر أشعثَ يتأهّب لغير المعلن، لقد وهى ما كان من قلوبهم وأقدامهم، وسنوات براءتهم. وتلك تصيح تعدّد مرارتها وخسارتها على مضض، وخلفها ارتسمت بقايا الدخان المرتهن على الحائط، علامة فارقة إلى الأبد.

كانت الشمس تحاول إثبات وجوه الهاربين وظلالهم مع إشراقتها القديمة، تساوم وتضحك لليأس حتّى يتهاوى، لكنَّ الدمار الهائل الذي أغرى القسم الشرقيّ من المدرسة، حال دون استيطان النور في القاعة، ولو برهة.

مرّت الساعات منزلقة، والمتوافدون في حلّ من إرادتهم، هم في حركة أمر حاسم إلى القاعة، إنّهم كمن لاقى نصف حتفه، وليست حالهم بأفضل ممّن استصبح في المكان. حقًا، هناك ازدحمت الأضدّاد، وبقايا الصواب والأحلام، هناك صخب الأطفال الذين وجدوا أنفسهم أبهى من الموت الضاحك للمتخاصمين، والذي لا يتراءى ظلامًا مكوّرًا إلّا للّذين هم على هامش اللعبة كالاحتياط، أو للّذين يتحكّمون بمربّعات الشطرنج بحنكة ودهاء.

في تلك اللحظة، كان المقاتلون في الجهة الشماليّة الشرقيّة يترصّدون المتوافدين وفعالهم التي تتطاير في المكان، وبرفَّة من الزمن، اسكتوا الهواء، وأخذوا النار بفروعها مصوّبة نحو الجمع، نطق السلاح وحيدًا يشتهي الأرواح، بوصفه سلاح الأعداء الذين انقضّوا على المدرسة خلسة، وفي ذلك

نقطة تسجّل في حساب المقاتلين المحقّين الذين دعمهم أهل الحيّ حتّى الدم، وهنا ضلّ القدر سبيله مرَّة أخرى...

ضربة زلزال مرّت بالمدرسة، سوّتها ركامًا، ولم تكن الوجه الأخير للحزن. كان الفناء والقبور حصّة الكثيرين، إلّا من استطاعت شفاهه أن تستغيث، وتتهرّب من معضلة الحتف. راح الدم يتمدّد قبل مغيب الشمس، وكذلك البكاء، وأصوات مجهولة أخرى لا يعرف من أين تنحدر، ثمّ تتفشّى في تلك الأرجاء البعيدة، ومن لم تمتحن جسده النكبة، أعلن النفير، وبدء هجرته الموعودة، لا يأبه بشغور الأيّام، فقط يؤلمه ما تحفره الطّلقات على ثيابه، لقد حاول أن يلوذ بما تبقّى له من روح تحوم حوله.

كانت مريم خيرة الصدارة بين هؤلاء، مسحت وجهها العظيم، وإذ به يتغيّب ماؤه، واندفعت تجرّ خيوط جسمها النحيل، ويداها مملوءتان بدم استبدل بطفلها الذي قدّسته بسيل من التعلّق به. طفلها الذي تدري أنّه لن يسعى ثانية بين عينيها، لأنّ الدور ليس له، فقط سيمرضها بنسيمه الملائكيّ كلّما فقد جنونها الرصيف، أو أتى المساء من بعيد.

مريم: «لست، فقط من سينقش نصيبي بعلامات من نار وسكّين! أو سأجري عارية من عنقي حتّى آخر النواح، والسقوط على وجع الأرض! لست فقط من سأزوي كالوهم! أو سأسترخي بالقرب من رفات الأحياء حتّى يمضي عني الجبروت، وأمـوت! هذه سيرتي سيرة حوّاء الثكلى التي عشقت أن تتميّز بلون من ماء يعرضها صافية تبصر من خلاله كلَّ فراغ مزدحم في صورة امرأة عربيّة لا تكتمل ملامحها إلّا بتنقيح رجل شرقيّ لها، لا يدرك ما ينجز، أو يجرم!»

تتابع بحنكة: «هل أخطأتُ وأنا حوّاء حين تآمرتُ على إصرار آدم في أن لا أخطو خطوة حرّة تقدّس لي الخصوصيّة؟! أم هل حننتُ إلى الخطيئة ثانية، عندما تمرّدت على السير خلف الحرّيّة، خلف السراب؟! هل جننت؟!!»

انقضّ المقاتلون يتعثّرون بالدخان المتصاعد، ويقتحمونه ليحيدوا الدمار وينتشلوا القتلى والجرحى من دون أعذار، ويعلنوا أنّهم المظلوميّة بحقّ، وشبهة إجرام أدّاها الطّرف الآخر «العدوّ» الذي يقنص الوداعة والسلم، ويهوى الخراب. كان الوضع يحمّل قصّة المقاتلين وجهًا من وجوه الغابة، حيث الذئاب تمارس إجرامها بحقّ الحملان، وأخيرًا تسايرها بوقفة صمود أمام المشهد.

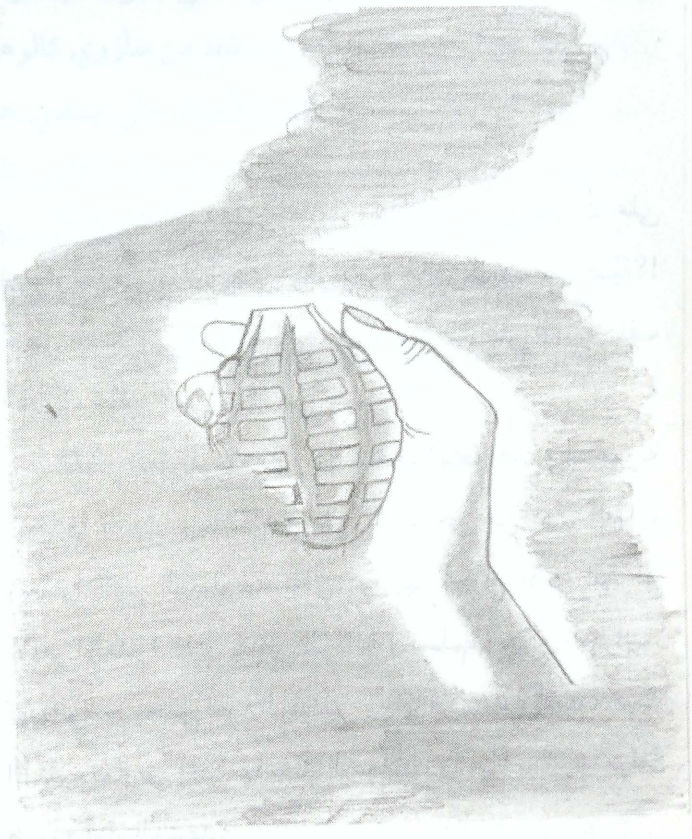

راح المقاتلون يحيدون لحاهم المتدلّية والملامسة الأجساد المتناثرة التي تُجمع وتكدّس في حفرة قريبة محضّرة مسبقًا لتستر الطّوفان، وتمحو العظام المتراكمة. وإنّ الدقائق الأولى لشريط الحدث احتملت إعانة من الشيطان وجنوده الذين لا ينضبطون خلفه، وسؤال مريم الطّارئ: «كيف تلاءم الضدّ والضدّ في أرض كلّ ما تنجبه بظلّ واحد لا يحتمل صورة معاكسة له؟! كيف يموت أبناء الله في الكهوف، ويحيا الغرباء يحملون محاجر أطفالنا، أطفال القضيّة، ويتقاضون أنفاس غيرهم؟! كيف يتثاقل النور فوق جباه تقضي تحت شعار الحرّيّة، مكبوبة للنَّار؟!»

فقط وسائل الإعلام هي التي انتُخِبت الشاهد المؤتمن على نقل تلك المسرحيّة، لأنّ الشاهد الأصيل نام، وشطب

دوره وحواره بلا أجرٍ أو تنسيق مع أحد. نام الشاهد «سيّد الدار»، وسلَّم الخبر لغير أهله. وفي اليوم التالي، تصدّر الخبر بعض الشاشات، وذلك بصياغة معدّلة: «أغارت الطّائرات المعادية على المدرسة الابتدائيّة للصّبيان، في حيّ الخالديّة، ملقية ثلاثة صواريخ دمّرت المبنى، وكان في داخلها عشرات الصبيان الذين يتلقّون تعليمهم، ويمارسون حياتهم بشكل طبيعيّ، بالرغم من الظّروف السيئة التي تحيطهم. وقد هرع أهالي الحيّ لانتشال الضحايا، وإسعاف الجرحى مستعينين بإمكاناتهم الطّبّيّة البسيطة»... انتهى الخبر العاجل.

***

قدر الإبنة «فاطمة» أن تجتاز مع جدّتها، أم والدها، حدود تركيا للعلاج مع من توحّشت أمامهم السبل، دخلوا مخيّم «الإصلاحيّة» الذي هندسته المعصية الآدمية في جنوب الحياة «تركيا»، كما وصفت. لقد تولّى شقّ توضيب الرفاهيّة فيه، النبيّون الجدد المبعوثون من دون وحي، فقط اتّكالهم على حدسهم، وما يتواءم مع الحاجة والظّروف. كانت الخيم مرصوفة بأشكال تضفي موجة أنس على الروح، وتشدّ النزلاء ليركعوا أمامها بتأمّل عميق، ويدخلوها وأحلامهم مخبّأة خلسة تحت قمصانهم، ومستقبلهم نخب بلا أرق، لا لوثة الآثام وظلال الماضي فيه، ولا من يرتدّ ردّة عن أحواله وحقوقه بوصفها ردّة هذا الحاضر.

قالت إحدى النزيلات لجارتها: «أشعر براحة تصعد من

قدميّ إلى أعلى، تروح وتفتّت كلّ غموض في صدري، لتصل إلى شفتيّ».

شهقت الجارة: «منذ متى تراودك هذه الحال؟!»

استرخت النزيلة: «عندما وطأنا المخيّم رأيت الهوس يزوي ليتصبّب جمالًا، رغبت حينها أن ألقي عنّي دثار الماضي، وكلّ كمد يعيي بهجتنا. رغبت أن أتوضّأ بفيء الشمس وأنذر ظمأي، حتّى يرتوي المظلومين بالحقيقة قبلي. في تلك اللحظة، تمشّت القشعريرة في بدني، وظلّت معي».

حملقت الجارة بدهشة: «كم يغويني حديثك! إنّه ينهض بلغة شعريّة محيّرة، أستلذّ بسعيي بين الخيارات لأعرف شيئًا من قصديّتها !»

قهقهت النزيلة: «نحن المثقّفين قضيّةٌ بحالها، نرسم أحلامنا على الورق، بمشاهد حيّة، نناضل... ونجدّ... وقد تسلب خطانا... لا يهم، فالغاية أن يطابق الواقع وعينا، ويمضي إلينا...!»

هدأت أعصاب الجارة: «إنّكم حكاية عجيبة! ولكن ألا تخشين التيه أو الهزيمة؟!»

- آه، كم أتوق كي يحضرنا المستقبل! سنتزاحم في ساحته بشوق، ونتباهى في محضره بانتصارنا للقضيّة مرّتين، وأنتم معنا. يوم أخلينا الديار نهزأ بالموت، ونتمرَّد فوق جراحنا، ويوم نعود بوجوه مرمّمة مع ابتسامات حديثة لا يعرف التيه إليها معراجًا.
- ماذا لو عدنا، ولم تهدأ الحال؟! كم أخشى يومها مرَّ اللحظات والكلام!
- حين يقدّر السيء على ما كسبناه، لن نموت وحدنا ثانية في هذا العالم، لأنّنا ما رتّبنا الحساب، كي يضيع الحساب!

لقد تخفّى عن النزلاء ما يضمر في ضواحي هذا المخيّم «المنتجع» من سموم، وترسيمات للنّهارات القادمة. قلّة من أيقنوا أنّ هذه الرحلة حقًّا لا تفوق بأحاسيسها جولة التعب، ولا تردّد الوجد الضائع بالأمس، وأنّ خلايا الفرح المضطهدة لن تنهض في الذاكرة مشدودة إلى النور والسلام.

كان الأطفال في المخيّم هم الخلايا التي طعّمت بالإنحراف للقادم من المستقبل. هم الفراشات التي مكر بها

الرحيق فأضلّها عن فسحتها وهواها، كي تحترق أمام الضوء الباهر، وهي تؤدّي واجب الطّواف عن غيرها.

تراهم يحبون في الطّرقات الموحشة وبين الخيم، لكنّهم لا يمارسون ماضيهم القديم، فهناك طفل جدّ شعرًا كي يسهو فوق عشب ينساب على التلال، أو يتمدّد تحت الغيث وردة ينحني على جسدها الماء فيطربها، لئلّا يذبل طيفها، ولكن حصّل العبث. كنْتَ إذا درْتَ في أرجائهم، تسلّلت إليك ابتساماتهم من خلف عيون تحمل في سرّها الخراب، وشممت رائحة المصير من جيوبهم وعرائهم، لقد نسوا كيف تطبّق لعبةُ الغمّيضة، أو كيف يستلقون على التراب والحنين، ووجوههم معلّقة بالسماء تصطفي النجوم وتحصيها، قبل أن تأوي إلى العتمة وتخبو.

يحيّرك شأن بعض الصبيان يمتشقون المسدّسات المائيّة، ليكملوا لعبة الموت هوايةً. ترى أحدهم يصيح على آخر: «محكوم عليك بالموت»! فيفلت الماء من قبضته ليمرّ على صدر من شاءه ضحيّة، يهوي الأخير، والماء يزدحم فوق جلده، والصمت يُخْمِدُ وهجه.

يدنو القاتل من الجثّة مخاطبًا: «هل أخلع عنكَ رداءك، وأنكّل بك وهمًا، كما فعل هؤلاء عندما ارتكبوا المجزرة»؟

- أنا المقتول! كيف أشرح لك دوركَ ؟!

- إذًا، سألقي عليكَ الرماد والتراب، ونكبّر.

فتّش الصبيانُ المقتولَ بنهم، فلم يعثروا إلّا على قلب ينبض، وضحكة خفيفة تجد فرصتها تحت عينين مغمضتين تستقبلان الرِيح. بعدها رفعوه بعشوائيّة وفخر، ثمّ ألقوه على الهامش خارج اللعبة، وأكملوا القنص ثانية هواية مثيرة تملأ فراغ الزمن.

إلّا المعطوب البعيد الحضور، والمترقّب لهم استهزأ بعفّة: «ويلهم يظنّون أنّهم يحتوون نصيبًا، كي تدور بهم رحى الشدائد، ليثبتوا أنفسهم لاحقًا، هل سيفتنون بلعبتهم بعد أن يكبروا، وتذبل ألوانهم الزاهية؟!»

والفتيات في جوارهم، لسن بأشفى حالًا. لقد هوت الساعة في محضرهنّ تدقّ دقات هستيريّة تخطّت دائرة الأفلاك، وكلُّ ما يفيض منها لا يضاف إلى العمر الأصليّ الذي يتباطأ مسايرًا العويل المتهاوي فوق المسافات الشاهقة ما بين الوطن والغربة.

تلك طفلة تداعب دميتها بغنج، وتتقمّص دور والدتها التي قضت عندما تعجّل إليها الموت، ومشى بين زحمة الأوجه والنار والدخان. كانت الطّفلة تعوّض عن شيء أضاعته، عندما جال العبث فوق القبور، ولم تتنبّه إلّا للخوف الذي سعى وراءها حتّى أدركها بسهولة.

كانت الطّفلة آمنة تردّد لحن أمّها، ودمعها حديقة تورق على خدّيها:

«آمنة آمنة

زهرة عمري الغالية

يلا تنام، يلا تنام

لرسملا فوح الأحلام

روح روح يا حمام

وصّلّي إلها السلام

للأميرة آمنة»

راحت تحوطها النظرات، وتقتفيها النبرات الحزينة لتجعلها كائنًا مناضلًا مباركًا في أسافل قاع الحياة، وهي لا تفهم شيئًا من هذا المجتمع الطّارئ والمهيب بأوجاعه، فقط

تتوق إلى أمّها من بين ثقوب الليل الدائم، وتستردّ لمساتها، وهي حائرة بنوايا هذا الفراق. قالت لها عمّتها: «هكذا يدفع المغبونون الثمن، وتضجر سعادتهم بعد أن يطول ترقّب الانتصار المتظلّل بسيف الخطر»! فانتصرَتْ آمنة للدموع أكثر، لأنّ إدراكها ارتبك وارتبك. هذه الوقفة المؤلمة تشاهد مرارًا في المخيّم، ولكن بشخصيّات مغايرة، وحبكة معدّلة تنقّحها الوسائل الإعلاميّة التي تحضر المخاض، لتنقله إلى الملأ مشوَّهًا غالبًا.

إنّ حضور الوفود الأجنبيّة والعربيّة إلى المخيّم أثبت حيويّته في استطلاع المكان بمحتواه، وملء فراغ الإستمارات المنتفخة باستفسارات توحي بالجدّيّة والاهتمام، وفي حشو الأشرطة بصور المأساة والمعاناة التي ترحّل إلى المستقبل، في ظلّ ضياع الحاضر وأفقه الشائك الملتصق بالمجازفة.

كان الأطفال يتكرّرون في تجمّعهم حول الكاميرات التي احتكرت الوطن على قدر هواها، وألقت القبض على وجوههم، وتركتهم يؤدّون أدوارهم خارج إرادتهم.

نعم، لقد باغتتهم الظّروف، وهم عدّة المجهول، فابتهجوا

يفلتون حبالهم الصوتيّة، ويبدون براعة واتقانًا في التصفيق، وتوزيع شفاههم هباء، ظنًّا أنّهم يتهيّأون للبقاء، بعد أن تُملأ طواحينهم شهوة حبّ وقمحًا. ولكن ما نفع البقاء والقمح إن أغمضت الأعين على القلق والحيرة، وكان كلّ صباح تتغشّاه الرمال، فيطوى ليعود المساء نحو الوطن، ويرسم حدّيّ الحياة ما بين الإرتباك والمجهول؟!

إنّ منسوب إدراك هؤلاء الأطفال أقلّ بكثير ممّا يجتنيه الآخرون الكبار الذين يستثمرونهم ضمن لعبة الأمم، ولكنّهم جدّوا بتصرّفاتهم وحركاتهم البريئة كي تطول أحلامهم تحت ضوء الشمس، وتقصر مقاطع كلامهم؛ لأنّهم لم يكتشفوا أنفسهم بعد، فقط يستوعبون ما يقدَّم لهم من ملابس وأطعمة وأغطية... بينما المسافة ما بين هذه الأمانات المقدّمة، وتحقيق الأمان بعدها، لا تحصى، لأنّها الفارق ما بين المنطق والحماقة. فالقيّمون على توزيعها وحسن الرعاية والعناية بالنزلاء قرصنوا الـواردات، وأدخلوها في شقّ المعادلات الحسابيّة والمحسوبيّات،لأنّ بالهم معدوم نصفه الكماليّ، في زمن لا فائدة فيه من الكماليّات.

ربّما لن يُحْدِث هذا الالتباس أيَّ حرج، لأنّ هؤلاء يدركون أنَّ مسار الوعي العربيّ تضيق خياراته، ليفرز إلى خانة «عاطل عن العمل».

***

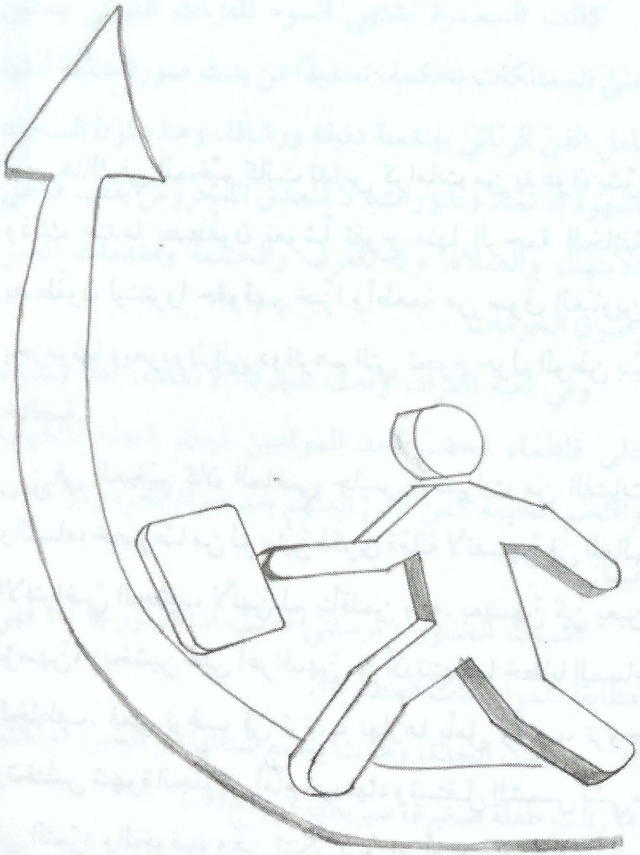

هناك في المخيّم كانت تداس كرامات من يدعون بشرًا، وذلك عندما يصطفّون نعوشاً تفوح منها الرحمة الخائفة، يصطفّون ليشتروا حقوقهم خبزًا وأطعمة من سوق العيّارين، يحزمونها ويعودون إلى دوائرهم التي تحوم حول الوطن بنيّة خالصة.

في المخيّم كان الماضي جليس الكثيرات من الفتيات والنساء، خصوصًا من لم يبنيْنَ ذكرى فعّالة لأنفسهنّ في العالم الافتراضيّ الجديد، لأنّهنّ لم يتأقلمن معه. بعضهنّ كنَّ يعين بؤسهنّ، ويخشين على أعراضهنّ من أن تنتهكها خطايا المساء الخاطف. فمن ترغب في ترتيب نهارها بأمل وارف، تروح وتختلس شهوة الجلوس أمام خيمتها، وتستقبل الشمس بشيء من التمرّد والخوف، وهي تتنكّر بزيّ امرأة حزينة، لئلّا يسطو

أحد من المارّة على جمالها إن أبدته، أو تتحرّش بها النوبة الذكوريّة التي تضعف أمام أوّل جولة إغراء أنثويّ.

كانت السمسرة تشتهي السوء للفتيات اللواتي يُسلبن أغلى الممتلكات بحكمة، تحديدًا من بدت صورة منمّقة أدّتها أنامل الفنّ الربّانيّ بهندسة دقيقة ورشاقة، وهنا يكون السجود للشّهوة إذ تمتدّ وللنّزوات، لا للعشق المحروس بقلب فيّاض بالابتهال والصلاة، ولا للعرف والحشمة ومقدّمات العمر وصون الحرمات.

وفي لعبة المزاد، وقعت الجولة الانتقائيّة، بعد سنتين، على فاطمة، فحضر أحد الموفدين ليعلم الجدّة بالخيار، واقتحم الخيمة كمن ألفى المتّهم بعد جولة تحرٍّ، وذرّ كلامه فيها:

«شيخنا المسؤول أرسلني لطلب ابنتكم زوجًا له، فهي مطابقة للمواصفات المطلوبة».

صعقت الجدّة، وهمت بجمع شتاتها اثر الخبر: «ولكنّها ما زالت طفلة صغيرة، سيربكها الزواج!»

اختنقت الغرفة بقهقهاته: «الجهاد لا يرتهن بعمر، فكلُّ

امرئ قادر على تأديته، ولو بتسجيل موقف موالٍ، فما بالك بحفيدتك؟! إنّها ستكون عظيمة في أداء دورها!»

حارت الجدّة، وبدت كأنّها تلهث وراء غاية ما، فلا شاغل لها الآن إلّا هاجس حفيدتها التي ستخلع نعليها، وتدخل المكان الذي ابتليت فيه السبايا، وظَلَلْنَ بقايا ضريرة.

- عليّ أن أعلم والدها بهذه الخطوة. ولكن، لم تصلني عنه أيُّ أخبار منذ سنتين!

رفع يديه ناهيًا: «لا داعي لذلك! والدها رجل بأس، يشهد له نضاله في الجبهات لإعلاء كلمة الحقّ». هز رأسه: «بلى، هو رجل ثبات وحرب، وجميع الموالين لجبهتنا مدركون أنّ ما يملكه أحدنا يحلّ لأخينا في الدين والمبدأ والعقيدة».

استفاقت في عروق الجدّة رعشة عذاب.

- هل ستأخذونها معكم، وتدعونني وحيدة؟!

ابتسم الشاهد على الموت، متقدمًا خطوة.

- لا، لا سيتمّ عقد القران اليوم، وتؤخذ العروس إلى خيمتها الخاصّة، وشيخنا الجليل سيكون مع زوجه كلّما أنصفته الإمكانيّات. وعندما ستهدأ الأحوال

قريبًا، سترافقه إلى بلاده للتّرفيه، اقصي القلق من جعبتك.

اتّكأت الجدّة على عصاها ساحبة جسدها نحو الشاب ببطء: «ماذا لو قدمت أمّها، لتعودا معًا إلى أرض الوطن؟!»

استدار مخلّفًا الجوّ في ورطة، ومتنصّلًا من الهمّ: «لا تقلقي، أيّتها العجوز! الشيخ، مسؤول الكتيبة رجل مقتدر وغنيّ، سيؤمّن لها مسكنًا شرعيًّا في المكان الذي ستقيم فيه عائلتها».

أمّا فاطمة فبدت بدرًا دامي الجفون، وهي تشمّ فحوى الحديث الدائر. وبعد أن جمع الشاب أعضاءه مغادرًا، دنت الجدَّة منها، مغطّية جرحها وحزنها بابتسامة مضت تلامس الظّلام المشتقّ من حيث انتهى النور.

- «ما بالك كئيبة؟!»

كانت فاطمة تحشر رأسها بين ركبتيها، رفعت نظرها: «ماذا يودّ هذا الرجل؟! هزّتني الخشية من نظراته الحادّة تجاهي؟!».

دنت الجدّة منها بخفة اليأس : «لا يا ابنتي! إنّه رجل تقيّ ورع مشدود إلى الدين، أتانا خاطبًا ودّك لأحد الأمراء في القتال، ألا ترغبين في ارتداء فستان الزفاف الأبيض؟!».

صعقت فاطمة بما سرى من ناحية الجدة: «فستان الزفاف، وأنا هنا؟! فقط الكبيرات يتزيّنّ به. ألا تذكرين يوم حضرنا زفاف ابنة جارنا «أبو جورج» في القرية. لقد بدت رائعة، وهي ترتدي فستان الزفاف».

فرّت ابتسامة كئيبة من شفتيّ الجدّة: «ستكونين مثلها أميرة!»

انتفضت فاطمة صارخة، وتشبّثت بعنق جدّتها: "لا أريد أن أكون كالفتيات الكبيرات! أرجوكِ جدّتي، أودّ أمّي، لقد اشتقت إلى أنفاسها وأناملها المقرونة بالحبّ»!

استمرّت الجدَّة ممسكة بخيط الحديث، مصرَّة على إعادة الشذا إلى الشفتين اللتين تمثّلان نصف المريض أمام شكّ روحه.

***

خيّم المغيب، وفوق جبينه يحترق الدفء، ومعه عاد الشاب المسكون بروح شيخه ليقلّ فاطمة إلى زوجها. ومن صميم الجرأة، جرّها ومفاتنها برفقة عصبة من الأشـدّاء، فصرخت الجدّة: «لم تعقد قرانها بعد، كيف تأخذها؟!» لم يولِ الشاب كلام الجدّة أيَّ كرامة، لأنّ مزاجه كان ملتهبًا... فحزمت حيلها خلفه، إلى أن شدّته من ثوبه بأعصاب كادت ترسب في محنتها. انقدّ ثوبه من دبر، لكنّ ذلك لم يلجم مشيئة الإجرام والعنف.

فشل صمود فاطمة، عندما أدخلت إلى خيمة الشيخ، حيث اكتمل خبرها السائغ، وأدركت عجزها عن الإفلات من مرساة قاربها العائم في الضباب، ولكن ظلّت رغبتها بسماع: «أكملي صباحكَ... فأنت حرّة!».

استقبلها الشيخ بعينين جاحظتين تتكئآن على شرّ من

الغموض والرعب. لحيته تنسدل فوق صدره، وشعره رَسَمَهُ مدبّر للمكائد. تاهت فاطمة بين تفاصيل جسده التي تضلّ الغريب عن الدليل، تقدّم منها وعلى وجهه علامة خلاص، لأنَّ جمالها استباحه، والذي قلّما يتيسّر بهذا المستوى، وقام بحركة مشبوهة، إذ ترك يده ترتاح على رأس العروس، ثمّ غاص في عالمه الصوفيّ يتمتم، والطّفلة تغتسل جوارحها بالخوف والدهشة.

أحسّت الجدّة بلسانها يُقمع، ويعجز عن الثأر لأنوثة حفيدتها، قبل أن ينهي الشيخ تراويحه. وما هي إلّا لحظات، حتّى أطلق الشيخ ثلاث تكبيرات «الله أكبر...» معلنًا بذلك بداية التملّك، وبعدها أشار بإصبعه فأخلى الرجال المكان مصطحبين الجدَّة ضحيّة أخرى...

أُسدلت الستارة على نافذة عتيقة فيها رسم أنثى خضراء تجدّ في الأدغال، وتبحث عن خلاصها في الأحلام والأوهام، وتتودّد للصّمت كي تفوز بباقي جسدها.

كان الجوّ من حول فاطمة متّشحًا بالغيب والغبار، ولم يقاسمه الحال إلّا صراخها الذي أقلق خاطر الليل... ولا يزال...

***

بعد احتدام الصراع، غادر «أبو محمد» إلى جنوب المنطقة المشتعلة ، حيث حاصرته الأنواء، وراحت خطاه تسحُّ ألمًا من دون برء، فقد اغتسل من فيض اللهو الصارخ بين ضفَّتين، كانت الحكمة حلًّا من قيدهما؛ لأنّه ورجال الصدفة ارتشفوا من موائد المغامرة والعناد الباهت، إنّهم التوّاقون إلى نطف تزخُّ سترًا عوضًا عنهم.

وهذي رسالة زوجه إليه مخضَّبة بالمودَّة المنكسرة، تبشّره عبرها بالحقد الوارم «حذار، حذار! قد يهمس الصمت في أوجاعي والرؤى، ليحزنك، ويفرّج عن كوَّة خمائلك الباطلة».

في «أكرا» حيث لم تعد توائم العشرة بينهما، افترشت مريم ظلّها المرهق تعاسة فوق أثاث بيت أربكته الصفقات، وأثكلته النقمة، وانكبّت كدأبها على أسرار ذاكرتها تتوسَّدها

حينًا، لتبعثرها أخرى بين جدران ترجّلت فيها المنايا عن ظهر قلب، كما اشتهاها «أبو محمد» مرارًا «نصرة للدّين المضام»... وأتخمتها الجلسات الظَّامئة إلى الطَّرائد.

ورفل السُكون الجارح يتخَّطف المكان الهوينى الهوينى، ويتحرّش بفرط الشباك الساطية على جلبة الوجع، وعلى قلب مريم، ويعتصر حيلة خلاياها وعينيها الداميتين حسرة على ما أطيح من بقايا إصرار، لقد أحلّ القحطَ حتّى في شفتيها، إلى أن أرَّقت الجوّ أصواتٌ تنحدر بشهيّة لاغتيال الحياة، كي تفلس إلّا من الأسى. أصوات تعاجل الخراب والدمار بين الأزقّة المستشرفةِ من ذاك الثقب الفادح في زاوية الغرفة الشماليّة المطلّة بارتياح على مربَّع الحصانة، وجرَّاء ذلك لم يعتقها الرصاص والبارود، أو تستوعبها المحطّات المفلسة من البصيرة.

جاد الهلع ودمع مريم رهبة لتتأوّه قبل أن يحتقرها العزاء، لم يتبقّ حلم وكرامة يلطّفان العذاب، أو يقصيان لعبة الموت فوق الدمار...!!

كانت الأصوات تتفاقم وتدنو يضرِّجها التمرّد، وتحتكرها منازع التطرّف الفتيّة «الثار الثار بقبضة من نار..»

لم تعد زوج الأمس تحترف القوّة والرهان، سوى الجوع إلى العزيمة كي ترقب المسرحيّة المطعّمة بلقاح الدم، وتكمل هوسها حول هذا التحوّل المحكم، وعندما حظيَتْ بفتات القدرة دنَتْ من الثقب حتّى كاد يبتلعها، ليتراءى من خلاله هؤلاء يفرّغون الغضب في الشوارع، حتّى من أسفل نعالهم، ويمدّدون أمد النضال في مسيرهم ذاك، حيث كانت أكفّهم تتلاعب بجثّة ضحيّتهم المصطادة التي سُجّلت بدل ضائع في رصيد أمراء هذه الجولة...

استمالت الرغبة فطرة تلك المرأة لتقتحم غمار اللعبة، علّ التجربة تناصرها لتقرأ عمق الوجوه وألوانها، وبذلك يتمّ التجرّؤ على الخصوصيّة، وتُفضح التوجّسات والمحظور عن الذاكرة التي ما عادت تحظى إلّا بأرشيف قرابين من بشر وحجر مطروحة فداء للمجهول العاهر الذي يتكلّم قبحًا وعنصريّة، والمملوء خيانة لا تشبه مريم وزوجها وزمرته، لكنّها تصرُّ على الإلتصاق بملابسهم وفضولهم.

كان بعض هؤلاء الرجال يجهدون في مضاعفة حشدهم المخزي وبأسهم عبر تفعيل مصادر الموت بتحرير عيارات

بنادقهم من كلّ استسلام، وتفريغها في ما صمد من بنايات هرمة، وكأنّهم بذلك يواسون أنفسهم، ويعدونها بجنازات قادمة تكون أوفر حظًّا.

أمّا ساحة النور في «أكرا»، فلم تستقل عن المجريات. لقد اعتادت الاسترخاء في وسط المدينة بغنج، وتقاسم الإسفلت مع مفترقات الشوارع المطلّة عليها. واليوم بدت خائبة في إعلان جدارتها بالحياة، فالأشجار والورود التي تتخمها، وتمنحها روحًا عفويّة، لم تعد مستلقية على كتف التراب تغازل الفرح، وتوفّر للزّوّار تأشيرة استقرار، لقد صودر زمانها، لتتحايل عليها العلّة، وتمنعها من ان تظلّ عنصرًا محايدًا عن تعظيم الجريمة...

لقد أمسى المكان العيون المتشظّية بلا أحلام، والأبناء الفقراء البائسين المهرولين من دون رغبات أو تصريح سفر، والسيّارات المركونة بعشوائيّة، والمبشّرة بأنّ أربابها وقعوا على عتبة الهزيمة، فتنكّروا للقانون الذي قلّما لا يُهتك، واستقلّوا سيرًا الجهة التي لا توزّع الموت هبة، بغية الإنتصار لأرواحهم فقط، بعيدًا من متاع الدنيا والذلّ.

كان المكان صورة محكمة للمحال التجاريّة المتكاسلة عن إخلاء النار التي تنهب خياراتها، حتَّى خيار الزبائن الذين أهملوا السياحة، وتخيُّر الحاجيّات خشية من أن ينهمروا رقمًا غير معتبر في دائرة الإحصاء، وذلك يوم تشاء الصُدف.

ذلك كلّه...ومريم تحزم أنفاسها عن كثب، لأنَّ حزنها اليوم تخطَّى مقدار العادة، فمن يُرصدُ بالخطأ عليه برهنة وجوده، ويشترط به البراعة في الفلسفة والمنطق ومتطلّبات الميدان... وإلّا يتدثّر تهمة الآخرين من شركاء الوطن الحاضن، فلا يلبث أن يبتلع لسانه، ويقضي فاصلة مهملة في زاوية صنّاع الغد...

حارت مريم في دوّامتها المفرغة إلّا من السواد، لأنّها لا تتقن فلسفة التلاعب والرهانات، ولم تهدر قرطًا من سنيها لتتفقّه في مدرسة الإحتراف والإنتساب للمبادئ المتهوّرة، عدا ما اختلسته شهوة، وهي تناوب بين المطبخ وغرفة الضيافة، تنصت للحرمان، ولإتمام فنّ الكرم في الفضاء الضجر، حيث المتطفّلون على عجل لم يحسنوا خفض منسوب تطفّلهم، فقد أصرّوا على مباغتة التوقّعات، ومواظبة الإتيان لرؤية

زوجها كلّما اندسّ الليل بين سراديب تلك المدينة وأزقّتها، ليتلطّوا سرًّا، وهم يتمرَّغون بالأنفة المشوبة بالجنون في حضرة المؤآمرات الخالية من جداول الرحمة، أو من موازنة الاستحقاقات وما يقابلها، لكن لا يعادلها في سوق المآسي.

كانت خطيئة الزوج أنّها أحرقت عمرها عند أعتاب القناعة والوفاء لزوج لم تدركه مناقضًا لذاته إلّا حين تدفّقت ثقته الساذجة التي أفسدت طينته، وهو يطلق عنان التراخي لهمّته الحائرة، وضميره المنفيّ فوق تلك الأريكة التي ملّت ثقله، وأُثيرت حفيظتها من فرط التمطّي فوقها.

في تلك الليلة المفصليّة ومع كلّ ماجرى، أمعن «أبو محمد» في الإنصات إلى ترسيمة الأحداث ليمحّص بدقّة في ملامح الخريطة المتعبة أمامه، والتي أقلق بسبّابته خطوطها، ليفرّج عن شهوته، ويجزم بالرجولة الصالحة، وإن تغيّبت الوجوه الإحترازيّة.

- ها نحن نتواعد، ونتجهَّز لفرح طارئ يأتينا بعد جوجلة صيف، غدًا تنفيذ الخطّة الساحقة...

انفعل قائد المحور، واقفًا:

- «حقًا! لم أتلقّ إشاراتٍ بذلك...»
- كانت الخشية من تسرّب الأنشطة المعدّة إلى الأعداء، لذا أعلمت باختمار المهمّة منذ قليل، عبر اتصال من قائد الجبهة الشماليّة.
- ولكن علينا أن نعقد الأمر، ونرهنه بطبيعة الميدان، وحجم المؤشّرات المساعدة...

تدافع الحماس في أعصاب أبي محمد محرّضًا إيّاه على إشباع صدى الغرفة بنبرته:«اليوم لا مجال للشّكّ والرِهانات، فالإنقلابات التاريخيّة العظيمة، والثورات المخلّدة لم يدرها إلّا الدهاة، وبما أننا من فصيلتهم، بالطّبع لن نقع في مرمى البثّ التجريبيّ، والتخبّط الواهي...»

وأومأ بيده اليمنى إلى القائد مردفًا: «على كلّ منّا تحمّل أعباء المسؤوليّة».

اغتبطت أنفاس الجمع، لتغادر صمتهم برفقة قبضاتهم «الله أكبر، الله أكبر»، إلّا قائدهم اختنقت عيناه بالسواد، وارتمى في رعشة وجدان مناقضة لما يشتهي، فاستجمع نبرته وهمد: «ولكن... ماذا لو حلّ خلل في تحرّك وحداتنا؟! إنّنا حتمًا

سنكون عرضة للموت، أو السجن بعد فضح خيوطنا، وتلك هي الضربة القاضية التي ليس بمقدورنا تقبّلها، والاستسلام لوطأتها».

- ما بالكَ؟! وكأنّكَ في محضر المعارك للمرّة الأولى!
- لا، لا! ولكن أخشى الفراغ، والنهايات البسيطة... بعد القضاء علينا جميعًا.
- إنّنا نخوض المواجهة ببسالة العقيدة والضمير، فلا تمنح شعور الغربة والبرودة فرصةً ليتعاظم في داخلك، ويتجسّد عاهة لم نلحظ لها عوارض في الواقع. وإذا تملّكتكَ المخاوف والضعف، تنحَّ ودع المهمّات الجسيمة لأسيادها.

***

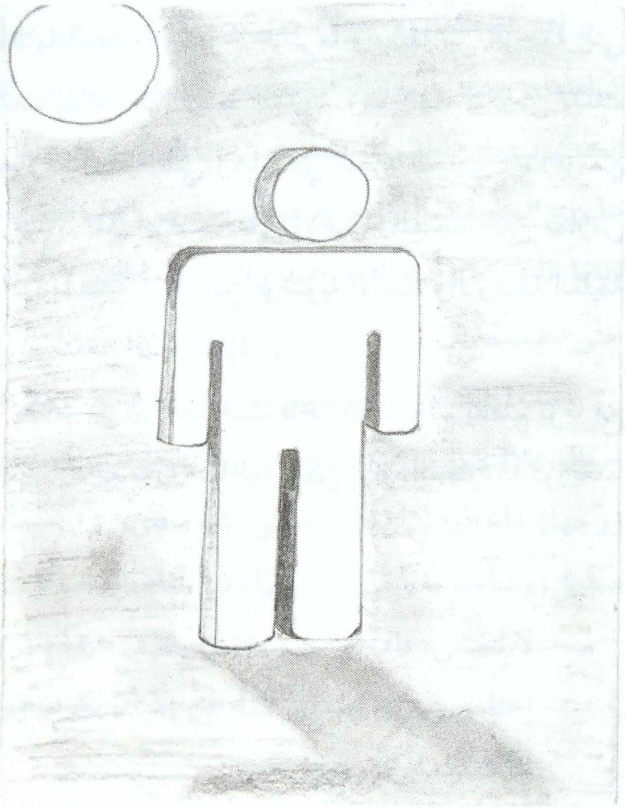

تمادى الحوار حتّى الحادية عشرة، إذ انفضّت قصّتهم بتفاصيلها بعد موجة شدّ العصب، والزوج تتّكئ على النافذة ببساطتها العصيّة، وتسرّح خاطرها وعينيها بين الزحمة التي لم تعد تتوافد إلى وسط المدينة وساحتها، لتكرّس بذلك المخاوف الراقية التي ركنت في الجزء الخلفيّ الشاغر من ذاكرتها... لقد حرصت على الأضواء المشتّتة التي تمارس جمالها بشفافيّة وزهد بين فوضويّة الأبنية، والأرصفة العتيقة التي تعرّت من أقدام المارَّة...

هناك بين الأزقّة، حيث فاخر الصبر ولم يتأقلم يومًا مع الإهانة، ازدحمت روحها الهاربة من حدود السطوة الذكوريّة...

وانتهكَ لسانها: «هل ثمّة وحدة أشدُّ من ذلك؟! لِمَ تطَّرد نوبات جنونه، وتعبره الأحاسيس الميِّتة؟!»

لقد تخطّاها مع هؤلاء عشيّة، مغادرًا من غير مواساة كرامتها.. علمًا بأنّها منذ أن تعرّفته اعتادته مفرطًا في إنتاج الحبّ، وبجانبه لطالما استشعرت بثرائها المعنويّ المتسلّل من عذوبته المتعطّشة إلى ردم أيّ هوة بينهما. هو وحده ائتمن على قلبها الذي عقد صفقة معه عند ولائم الطّيبة التي لا يفسدها حتّى الغضب.

عندما ابتدأت التحرّكات الشعبيّة، خشيت مريم على جمال علاقتهما من أن تطيح به زوبعة التغيّرات، فصارحت زوجها: «أحاذر أن تغادر حياتي كالوميض، لأنّ سعادتي ستذبل، وسأحيا ما يتبقّى لي من أيّام في شقاء وعذاب!»

- لا تخشي، فالأحداث والحراك يجري بعيدًا منّا. ولو اختلِسَ عمري صدفة، لا أوافق إلّا أن نكون سويّة، لأنّك تكملين روحي.
- غالبًا ما تجري الوقائع خارج إطار ما نرغب . سمعْتُ أنّ بعض الجهات التي تُؤْتمر من الخارج، تجدّ في

إنفاق الأموال الطّائلة لاستمالة الشباب إلى صفوفها، وتحريضهم على مناوأة السلطة، والإسهام في شلّ مؤسّساتها بعد القيام بهجمات عليها.

- يحقّ للشّعب المطالبة بحقوقه، والتحرّك لإقامة العدالة والمساواة وتأمين الرفاهيّة والراحة، ولكن من يستسلم للخارج وأمواله، ليؤذي أهله وأبناء وطنه لا تليق به كلمة «مواطن»، لأنّه سفيه وعميل.
- حقًّا، من يخسر كرامته بفعل التحاقه بالمادّيّات، يخسر وجوده، والأجدر به الموت.

أشعل سيجارة بروية، وتابع: «اليوم يحمل بعضهم شعارات فضفاضة، ويرتهنون لها، لذا يتمّ انتهاك القيم والأعراف والمقدّسات لإحياء تلك الشعارات المستوردة، ولو على جثث الناس».

- علينا أن نعي المرحلة، وأن نعيش نتائج تجاربنا الخاصّة، وفق قناعاتنا وما يتلاءم ومصالحنا، لئلّا يتراجع دورنا في المنطقة. أليس كذلك؟!.
- صدَقْتِ...

دائمًا ما كان يتملّك مريم دوار الرضا، عندما يشاطرها الزوج الفكر والتطلّعات، لذا تفيض غبطة بأربعين رجولته.

***

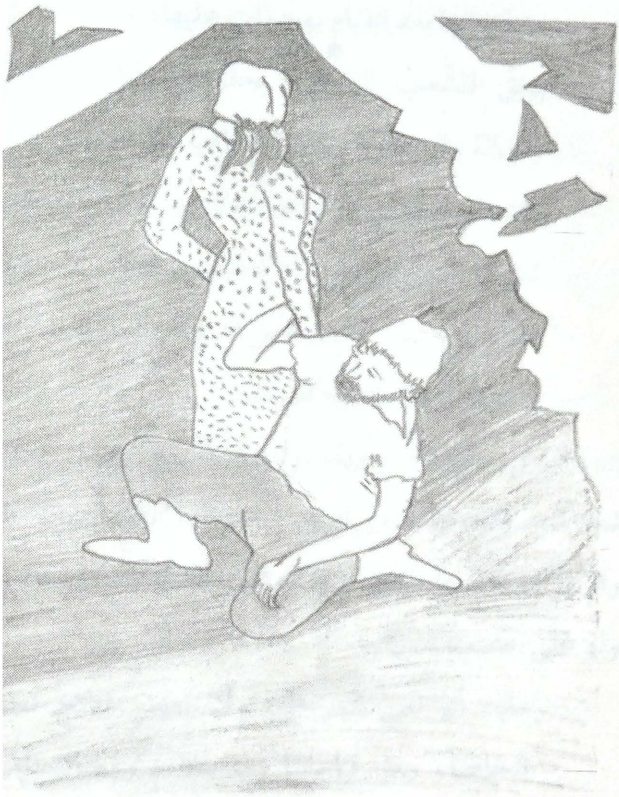

ساعتان انقضتا على مغادرة «أبو محمد» وزمرته، وبعدها تدفّق الزمن في موعد مجهول عن ما يرغبه البشر. لقد تداعت الأخبار العاجلة الملتبسة هوّيتها حول مصير الحافلة المصوّبة وجهتها نحو ذاك البلد بوتيرة يائسة. كانت تحمل من الهمّ ما يثقل سيرها، أطفالًا ونساء وعجزة.

هؤلاء استوهموا الحياة في ديارهم، الحياة التي باتت كالمشكاة المنصرفة عن أداء دورها تحت القبّة المجدولة ببهاء الأعين والأمنيات، فأتوا ليحضروا جنازتهم في غير توقيتهم، فقط مع عزلتهم وفقرهم وشقائهم. حتّى الراهب غادر معهم موضع معراج تسابيحه، وانسحب من ذاته قسرًا، لكن ظلّ قلبه عالقًا عند المذبح يترقّب ساعة الميعاد.

قبل أن تطأ الحافلة المعبر الحدوديّ، تباطأ السائق قليلًا،

لأنّ المكان محفوف بالقنص، ومكشوف على حفلة تهديدات الجماعات المسلّحة، ثمّ صاح: «كلّ يخفض رأسه، المكان خطير»!

كان حارس الجميع أعصاب مبعثرة يكثر فيها اللوم حول ما يجري، إنّها تضع المرء بين خيار تجاهل الموقف، كي يكون على قدره، أو إعلان الحيرة، ومحو كلّ وقفة عزّ. ولكن ما نفع هذين الخيارين بالنسبة لهؤلاء، إن كان الموت الحقيقة الواقعة التي لا رأي للمرء فيها، فقد تمرّ عليه مرور الخفاء.

هنا كانت الجريمة لا تزال معنويّة تفوق برهبتها المجريات، إلى أنْ جَنَّ المكانُ بِدويّ انفجارٍ، بقيت الألسن إزاءه تلازم حدّ التراب بكلامها، وذلك لئلّا تصاب بداء الوحدة من شدّة هول الفاجعة التي تصلب المترقّب على منصّة الفضيحة، وتمتصّ المتهاونين الذين يكبرون مع أوهامهم ورهانهم، ويشهدون على غيظهم.

حار هؤلاء: «من سيجهش بصيغة الموت الإحتفاليّة هذه؟ هل سينصفها الوتر الواحد للبكاء العابر؟ أم سيعروها ما سيقرأ في الصحف الكثيرة التي تبحث عن أفق لها؟!»

هؤلاء الذين ترمّدوا في الحافلة، كانوا يعترفون أنّهم يجرون عكس الزمن، مع نوبة الجنون المضاد، فارتكبوا خطأ لا يغتفر، عند ذاك المعبر المساحة الشاسعة من الحنين الفاصل ما بين حركة الحضور، وحركة الغياب... المعبر الذي تحوّل أخيرًا إلى لحظة انطباع بعد الهزيمة.

بعد يومين، عاد الـزوج وعلى وجهه هويّة غامضة، يُضاعف فيها التعويض عن ميول شاذّة يتضاعف فيها الزبد، وفي يده حقيبة سوداء تنبثق من خاصرتها التساؤلات، ويحوم حولها الكلام المكهرب. مضى متسلّلًا بها وبنفسه إلى وكره لئلّا ترتهنه الزوج وتحوّل إفراطه في تطبيق الوطنيّة إلى تأنيب أو وجع، فيبدو حينها زوبعة تطفو على بقعة من نار.

جدّ هواه مسبقًا في إعادة تركيب ذاكرة جديدة لمريم المهووسة بالوطن الماضي، والغارقة فيه، تحمل مكانه سطرًا سطرًا، من دون أن تلدغ بداء النسيان.

أحسّت مريم بحركات لها نفس جديد، وتفسير آخر، تتصاعد من الرواق، مضت ينتهبها الرعب، إلى أن تفاجأت بأبي محمد يندلع في حواسه الارتباك.

- هل عدْت؟!
- ما رأيك؟!
- أقصد، متى؟!
- الآن.
- ما بالكَ تبدو محمولًا على الجمر؟!
- أنا؟!
- كأنّك تخضع لإرادة الإضطراب الشامل!
- لا شيء! فقط مرهق من العمل.
- وهل فزت في إنجازه؟!
- حاولت جادًّا، ووفّقت الحمد لله.
- انسحب من المواجهة إلى غرفته لينزع عنه فتات الكسل الذي رنّقه، وبقيت مريم ظلّه الآسن، إلى أن هزّتها الحقيبة التي تراءت كالحديث الساري.
- ما هذه؟!
- حقيبة! شدّها إليه بحنكة، وكأنّه يغمس كفّيه في ساقية مشبوهة.
- لماذا تزدحم حولها الحيطة منكَ؟!

- إنّها أمانة، وعليّ أن أكفيها شرّ أيّ حركة طائشة منّي.

ثمَّ أفلت ضحكة، كانت أقصر من أن تؤكّد براءته أمام مريم التي تلخّص العبرة بأضيق الكلام، وتستشفّ الحذر من بؤبؤيه المثقوبين على بلاطة العمر.

انصرفت عنه، وفي قلبها انحفرت غصّتان وهاجس هرول إلى أطراف أصابعها ليبيد الإحساس الطّيب إن وجد، أمّا هو فقد خلع جسده على المقعد، وانسحب خاطره يفتش بترف عن مشهد آخر لضحيّة من أبناء الوطن، تكون قد تألّمت على الصفيح المحترق، لأنَّ ذلك يجعلها نزوة حادّة بطعمها.

تمطّى قليلًا وامتعض: «إنّ المهمّة الموكلة إليّ الآن كالحصى العالقة في صدر المياه، تزدهر فيها الشدّة جرّاء الخوض في الوحول الغامضة لالتقاطها، هكذا سأؤدّي مجهودي على قدر ما يعتمل في الحقيبة من أموال وعروق ذهب، وإلّا لن تعتق رقبتي هباء».صمت، ثمّ أردف: «عليّ ترتيب فكري في تجاه مهندس، وفصله عمّا يعيق التحدّي، وبذلك إعلان حسن النيّة المأجورة».

طلّق المقعد فجأة إلى غرفة الضيوف، راح كالوحش يمرّ

في خلاياها، ويحاصرها بنظراته، وهي تدور فيه جوابًا، لقد أدرك علاماتها الفارقة، ومساحتها معنويًّا " ستكون الغرفة شامة تقدّس فيها الأجساد عبر الرسم أو الكلمات أو... وفيها ستتشظّى الشهوة الذكوريّة لتكون عربونًا من إناث يعبرن بين الواجب والمعيار العرقيّ، بعد حملة كدّ الشباب وابتزازهم، فما أحوج الرغبة الذكوريّة لتنساب في مسام اللواتي سيجاهدن ويخشعن، وهنّ فاتنات حتّى آخر المطاف...!» كانت قناعاته أقرب إلى حلم اليقظة.

بعض النساء والفتيات العربيّات جرّتهنّ الدهشة ليتنفَّسن الوقت اندفاعًا، ويجرّبن الحياة على حافة الأجر الجهاديّ الذي لا يفقه الأنقاض. حضرن معركة الشتات وهنَّ يغتسلن بالطّمأنينة، وبإرادة على أطرافها أشرق اسم الله، لقد سكتت في عباءاتهنّ الشكوك أو الوجوم، وهنّ يسايرن عروق الرجال في غير موقع ومحنة، ويتسلَّحن بغمرة الوعود، وطراوة العلاقة ما بين الفصول.

عبقت فضيلة أبي محمد النادرة في الغرفة التي قولبت لتستجيب للضَّرورة القابلة للتَّبنّي، فاندفع إليها في أوّل العرض

ستة روّاد للمنبر الشهوانيّ وشيخهم، كانوا توَّاقين إلى شرط اجتماعهم الذي يسوّغ عاهتهم الطَّارئة،وهو ثنائيّة الجسد والجهاد، ثنائيّة الموقف والهويّة التي تتبلور حديثًا، وكان موضوعهم ثلاث نساء عربيّات محصنات مع التزام مفرط، ولحم طريّ مشاع، نساء استودعن الأبناء والأزواج تلك الحياة الكلاسيكيّة العتيقة، للاشتراك بأسهمهنّ في بورصة الأحوال العربيّة التي تشطر التاريخ والذات إلى منعطفات وبلبلة.

لقد انتُهزَ التقارب الفكريّ المجّانيّ المتمدّد ما بين الحاجة والنجدة، ليتجسّد «بيان مواعيد» لصق على حائط الغرفة، محرّر وفق رؤية الشيخ المخضرم الذي أفرد فرصة لكلّ شاب عند محطة الإناث، مع حصر مداها، وذلك بلغة تملأها المقاطع والمعاني بعيدًا من السرياليّة. أمَّا حصّته فكانت تُحِلُّ له ما يفيض من وقت يوازي مهمّته الإنسانيّة المتفاقمة التي لا تشيخ.

وبعدها راحت حركة تركيب المشاعر بلهجة أنثويّة تزدحم في الغرفة طيلة الليل والنهار، من دون تقنين، وصداها يُضرَم في جدران المنزل علّها تؤدّيه إلى الله بصورة صلاة تحمل شيئًا

من ملكوت العقيدة. إلّا مريم كانت تخيّم خارج دائرة قلبها العليل بالغياب عمّا يجري، وتختنق بقمة هذه الأجواء التي لم تكن أليفة، ولا تدري إن كان سيصفح عن آثام غبنها المجبول بمساءات السخرية، أو ستترجم ذكريات من يسقط سهوًا بين صدى الأرواح، وهو مسموم الرُوح!

هكذا كلّ شيء أثبت أن تلوّث الزمن قد ورَّط هذا المكان ليكون محجّة للّذين تورَّمت أنفسهم بمهارة، وراحوا يطلّون على العكس، ويعالجون عذاب الواقع بقبلة عابرة.

ظلّت هذه الحركة المشغولة بمجالها توطّئ للنّساء العربيّات اللواتي رحن ينقّحن أصواتهنّ بشرعيّة مبتورة تغني توسّعهنّ مع رجولة شرقيَّة خصبة تزهد وتزهد بكلّ وعي متفرّج، وهي ستكون على موعد مع أطر المجتمع الجديد وخليطه.

***

كان في النوايا الخلفيّة لأبي محمد خبث يمدّد جسره الفرديّ ليستمرّ التوازن بعافية مع المال، ويشبع أداء هؤلاء الرجال الذي يفوق سياقه النزوات كلّها، لذا ازدهرت السُبل لتشمل من هم رماديّو الموقف، المثقلون بالتعب بين التشرّد وحدّ الجوع، فانسحب إليهم أبو محمد عند ضفّة «الزهريّة»، حاملًا ترخيص الاتجار بالقاصرات، موهمًا بتأسيس جمعيّة خيريّة.

راح يرسو في رحاب العائلات المكبّلة ببناتها خشية إنجابهنّ في الظّلام بعد لحظة تغافل، ولحيته تشدّ وقاره، وهو يمسّدها وينسّق عباءته. كان يكشف عن استقامته، في أثناء عرضه المال على المتولّين الشؤون، مقابل حياء بناتهم وحياتهنّ. إنّ رسوليّته، للوهلة الأولى، تستر مجازفته وضمير المتكلّم.

لقد نجح حديثه في استنزاف العواطف الرخوة للنَّازحين، من أبناء وطنه عبر حكِّ نقاط ضعفهم بالمال، أو الضرب على أوتار خوفهم من الجوع أو العار، فتمكّن من جرّ القاصرات إلى منزله محاولًا تحريك شهواتهنّ الراكدة، وإخراجهنّ من النسيان على يديّ بعض الشيوخ، مع يقينه أنّهن سيضللن الطّريق بعد هذا التوغّل الشرس بينهنّ، لأنّ أقصى علاقة ودّ أحاديّة تُبتر بعد أسبوع. ولكن تعذّر عليه التقاط ظلّ صياغة ليبراليّة تعيق جرأة زوجه التي تستفسر: «من سيتولّى حراسة هذا اللحم البشريّ المكلوم جرّاء فعال الأخوة؟! ومن سيطرد عن جسدي وأعصابي أصوات المعصوبات القلب اللواتي ينتهكن في منزلي والشقق المجاورة؟!»

ظلَّ الصراخ يفوح بنكهات متفاوتة، فأدركت مريم كنهه، وتلمّسته شبيها باللون الذي عبق في حيّها عندما أحيل خطًّا ساخنًا.

توسّعت مصادرة الإغتراب، فكلّف أبو محمّد بعض سائقي سيّارات الأجرة البحث في يوميّات البؤس الجاري عن هياكل قاصرات بمعادلة جماليّة لا تبرهن، ومن دون رياضة

فكريّة مرهقة تعقد الصفقات في شوارع "أكرا»، والتي اجتاحت حتّى المساجد، وتترجم في الشقق الجديدة التي أدرجها أبو محمد ضمن معاملاته القائمة على الدعارة المستترة.

كانت «سحر»، فتاة سوريّة، بِطلّة لم تنهرْ، وهي تشرف على لهيب صدمة الوطن المتراكمة، اندفعت تشبع حضورها بدمعة اعتذار في زاوية مسجد «الرحمة»، تتوقّد صلاة وإيمانًا مكسوًّا بنيّة صافية علَّ يقظة الضمائر تتأهّب مع الفجر، وتساق إلى حقل الوطن فينمو من جديد.

ذات يوم، دنا منها شيخ قرأت وجهه مرارًا في المكان، ولكن لم يعبر استفساره بالقرب من حنينها الذي يصحو على جفن الوطن، فقط ميْله أن يتقاسم معها ما وقّعه في تفكيره من رغبة، وبعد تمهيد وجل منه فاتحها: «يؤرّقني أمر مُلِحٌّ، وآمل منك اقتراح جواب يأذن لي بالاستراحة».

- وما شأني بأرقك؟!

تبسّم: «تدركين أنَّ الدين الإسلاميّ يرغمنا على إتمام نصفه بوساطة الزواج، إذ نقاوم العزلة مع أوّل العلاقة الزوجيّة، ومع أوّل الكلام.

- صحيح.

- ولكن! ثمَّ ابتلع لسانه قليلًا، ومرّر نظره على الجدار الذي يستقبله راغبًا في المساومة
- ولكن ماذا؟!
- ولكن تخيّر المرأة الصالحة يوجب التروّي والإنضباط الدقيق بالحكمة، وبوصفي داعية ومرشدًا، فإنّي أُهْزَمُ في محاولة الاحتكاك بالنِساء مباشرة، فهل يمكنكِ إقصاء العقم الذي يعيق خطوتي؟

عاجلته: «إن صَلُحَتِ النوايا، وَنُقِّحت من الشوائب، فلا ضير».

- نعم، بالطّبع؟

تابعت: «ولِمَ وقع خيارك عليَّ؟!»

- أنتِ محافظة بحجابك وعباءتكِ، وبذلك تطرحين الهيبة والثقة بجدارة على من حولكِ، لذا أسرت توجّهي!
- وما معيار الفتاة المرغوبة لديك؟!
- فتاة سوريّة قاصرة من مخيّمات «الزهريّة»، بخصوصيّة جماليّة لا تكرّر.

- قاصرة؟! ألا يغريكَ مفعول الفتاة الفكريّ مثلًا؟

رفع يده اليمنى : «لا يهمّ! أنا أنتج منها ما أشتهي لاحقًا... ولا أنسى أنّ تعبكِ سأقوّمه بالمال الذي يصير من شروط الصفقة بيننا».

- صفقة؟!

- نعم، وعائلة الفتاة سأرفع عنها كلَّ ما تتّشح به من حاجة ومعاناة.

حدّقت سحر إلى الشيخ الذي بدا يوضّب آلية تكيّف تلك الفتاة الموعودة مع التعاسة، ومدّت له حبل الحديث علّه يقع في المعضلة، بعدما اختمر الإحباط على يديه.

وقفت بعنف : «لو ناصرتُكَ في هذه الجدليّة، مَنْ منّا سيسجّل الهاوية في رصيده؟! وأيّ بطولة ستروِّج لها إن كنّا، نحن أصحاب القضيّة، نقف بين حافّة الأفق والخداع؟!»

تعثّر فكره: «لا تقلقي الجميع منتفع».

فار غضبها ضعفين.

- لا أطيقكَ، فإنّك فائض عن دمنا وشرفنا.

مدّ أنامله برشد كي يلجم عنفها: «تـروّي! ما بالكِ اِلتهبْتِ؟!»

تنهّدت أمارات اليأس على وجهها: «تتوسّلني لأطوّرَ الجهل أمام بنات وطني متّشحة بلهجة الإحسان، لأختنق به لاحقًا عندما تبيعني إحداهنّ غفلة لأمثالك!»

وبعدها وافته بصفعة كادت تشتّت أنفاسه، مثلما مارسَتْ ذلك سابقًا مع صاحب سيّارة الأجرة الذي تحرّش بعاطفتها، مشرئبًّا على جرحها.

- تتنكّر بزيّ ملائكيّ مشبوه لترفّه عن خاطركَ، لإنْ حشرنا القدر ثانية، سأنثر لحيتكَ على هواي، وأرغمَك على التقاط أطرافها من تحت الرماد...

حزمَتْ عباءتها بشدّة ملقية كلّ تعليق، وخلّفت المسجد لهؤلاء فسحة لهو مثير، وموجة تتلاحق فيها الحماقة...

***

لم تدع المعارك المنهمكة في آخر أوتار الوطن، شغفًا يُطرح بتفاصيله خارج المناسبة أو غواية الخسارة، لذا ارتطمت مريم بيأسها الذي يجرّها توًّا من ذاتها إلى البارحة، يوم ابتدأت الحرّيّة لفظة مهجورة في مساحة تصلح ذريعة للخداع والمعابثة، ويراودها أرق: «من ابتكر يقظة الحرّيّة في ظلّ أمّيّة تسكننا على قدر قياسنا؟!»

لقد ألزمَتْ مريم أناملها المناورة صبيحة على تحاشي ترجمة مصطلح الحرّيّة بجدّيّة، لأنّه سيتعب إن عَلُقَ حبرًا أسود بين درجات استيعاب الجميع. كان ذلك الصباح عابرًا، كما تعبر أحاسيس الزوج الذي اجتهد في ارتكاب ومضة خاطفة يجالس فيها زوجه الممتعضة من إيجازه في الإستماع إلى عرض أسباب خيبتها المنقولة عن مسوَّدة حياة لم تبرأ منها

بعدُ. وهو في هدأة مؤقّتة أشعل سيجارة طفح منها دخان ناءت به جدران غرفة النوم، وبعد استرخاء عضلاته المنهكة، سحب ورقة من على الطّاولة في الجانب الأيسر، كان مناخها حروفًا أصيلة، وأكثر عدالة لأنْ قلبًا أغمد على هزيمة متناسلة قد دوّنها، وبقليل من الجرأة التحق بالحروف يزنها:

أيّها المعصوب بلون وطني

إقتفِ يقيني وتأنّ

فغداة غد، يسترق الغبار وسطران من حذرْ

فأطرح سيرة الأيّام

بين كفّيْن شاغريّ الحاشيةْ

وأدفع الفوضى إزارًا

يقتات من روحي

من خيالاتٍ حائرةْ

تغتصب جسد الماء

يقاسمها الوقت الجزءَ المنهوبَ

من ظلٍّ عريقٍ

يستطيل في المساءْ

يعبر الزمن بلا تفاصيل أو خبر

ليرسم سيرةَ نهرِه

في الجفن

أو خلف ضاحية القدرْ

عندما أفرغ من إطّلاعه، عدّل وضعيّته، وغزا مريم بنوبة انفعال.

- صحيح أنّني لم أعبر أسلاك هذه السطور، ولكن أُدرك أنّها انتفاضة منحرفة تتركينها معلّقة ما بين الإبداع وشرط التحدّي!

قاطعته: «تتوهّمها كذلك، لكنّها لهجة كفاحيّة قابلة للمناقشة لأنّها لم تختر ظروفها وعبثها، بل أتت محصّلة طارئة لمرحلة تخطّت التساؤلات كلّها».

ألقى الورقة في جوّ الغرفة: «أعيدي النظر، فهذه اللهجة الكتابيّة تنمّ عن مأزق نفسيّ، ورغبة في تمنّي اليأس».

تبسّمت ساخرة: «لا، لا! أظنّ تصرّفاتك تعوزك للتّنقيب عن فسحة حرّة في نفسيّتك المريضة، تكون محطّة لتصريف الخلل الذي خانك».

كانت نيّة مريم أن لا تحنّ بقسوة إلى أمومتها، لئلّا ترهق فكرها، وهي تمرّر استحقاقها المتبقّي من الاغتراب والوحدة.

دارت شوطًا في أرجاء الغرفة، منحنية الكتفين، ثمّ صوّبت نظرها نارًا نحوه، وأطلقت سهامها: «تتهاوى أرقام الضحايا، ويتهاوى وطني ليضاعف موتي، ويبطّئ عبوري بين نار الحرب ونار الأمومة. لقد ابتلعْتُ وجعي، وبقي حضوري يقرُّ لي باستعادة شيء ضاعَ منِّي».

تضخّم صراخها ليطيح بالهدنة التي تسكنها على مضض:

مَنْ يصفح عن حجم الموت الذي يعتقل عيوننا؟! مَنْ يسمع ذعر طفلي «محمد» فيزحف بي إليه؟! محمد الذي أسقطْتَ قدسيّته، بأبوّتكَ الزائفة، وحرمتني من نعشه وقبره! وفاطمة ابنتكَ، أما تنقر ذاكرتك لتحترق خبرًا وألمًا في صدركَ؟!

انتفض ليحتجز الصخب، فتسلّلت أنامله لتطبق على لسان مريم: «ما الذي اعتراكِ؟! أُدانُ بما يتكاثر في رأسكِ من تضليل! كيف أسلخُ ولديَّ عن تقاسيمي؟!»

- تلطَّ خلف انتصاراتِكَ المؤقّتة، فهي وساوس تأكل من غريزتكَ، وتلاحقكَ! تأكد.

ابتسم بانتقاد جرّاء ما ذُيِّل به من اتهام وجدانيّ.

- ابتسمْ لإجرامكَ، وأكمل خيانتك فوتيرتها لن تهديك إلى نهاية رائعة! ألسْتَ خبير خيانة، لِمَنْ وهبْتَ طفولة فاطمةٍ إذًا؟!

خبّأ وجهه بكفّيه اللّعينتين ، ثمّ كشفه: «لن أسوّغ، إنّها تأتلف مع الأمن والرويّة في ذلك المخيم».

- أَوَأنتَ على يقين؟! وهل الأمن أخرجَ عذريّتها من دائرة التداول في ظلّ عاصفة الحزم والرماد والاستنزاف؟!

- بالطّبع! ما دمنا نتوب عن الذنوب، لن نُمتَحَن بلحمنا ودمنا.

أشارت إلى غرفة استنزاف العربيّات: «ماذا عن اللواتي تُسلّم مفاتيح أجسادهنّ لإخوانك في الاجتهاد؟! ألسْنَ خطايا مبوّبة على جبينك، تشرب نخبهنّ، وتسكرُ فاطمة ببقايا الطّعن؟!»

في الصبيحة عينها، وفي الجهة الأخرى من موسم الغبن،

كانت فاطمة تفقد قبلتها وهي تمرّرها على جسد طفلتها المعصوم من اللون، لكثرة الذنب الذي تمرّن فوق مسامه بعنجهيّة، وأبقاه أسير لعنة شيخ أساء تصريف المستحيل.

راحت تهدهد طفلتها الموروثة مجّانًا بشهادة ميلاد تسقط أرقامها وتاريخها وانتماءها، فتُضْجِر العللَ من كثرة الأحزان فيها، وجدَّتْ في قتل الدموع التي تقودهما سويّة إلى الجحيم الإجباريّ، لأنّها تدرك أنّ لا قاضي اليوم يستأنف العدل داخل زنزانة معصوبة بظلم يديرها نحو الفراغ، ولا مَنْ تسترسل فيه الإنسانيّة فيعكسها عاطفة بلا شكّ، تندلع في حواس المخيَّم، وتحرّر بقايا أنقاض الأجساد فيه، وتحرّرها وابنتها.

استقام أبو محمد جامعًا نفسه، محاولًا رتق موقفه المجرَّح بالإهانة، وذلك عبر السعي للامتلاء بروح المبادرة مجدّدًا.

- كم آسف يا مريم لأنّ موجة الإستياء تضيعكِ، ولا تعيدكِ إلى حدّ الصواب! نحن نناضل كي ننتمي، وضريبة ذلك البدء بالألم أوّلًا.

ثمّ تأوّه، وبدا ينقّي حديثه من كلّ حرف دخيل يفسد الطّراوة.

- استبدلي ملامحكِ المنذرة بانتحاركِ القريب بعد التنازل عن حصّتك من الحياة.
- تودُّ مني الإحتشام خلف بقايا أيّام ينخرها الإنتظار؟! لا، لن أمرّر شحطة توبة تشارك وجداني، وتضلّل رمزيّته.
- غدًا سنعود إلى حيّنا، نستوضح بقايا ترابه، ونتمسّك بالأهداف، لن نذرف الذريعة أبدًا، تحضّري.
- ماذا لو اعترانا الإنذار هناك؟! هل عليّ خلع الحداد العتيق، وإعلان جولة جديدة منه لا تنتهي المناقشة فيها؟!
- استقرّي، ولا تؤرّخي لأسى بعيد. رجالنا يمسكون بناصية الأحداث التي اجتازت مرمى العادة.
- أحسُّ أننا لم نعد نحمل من تصريح الأرض إلّا اللجوء، بعد أن شحّت إطلالاتنا على الوطن، وضاعت أطرافنا الباردة بين ملامح سهوله ووديانه...

***

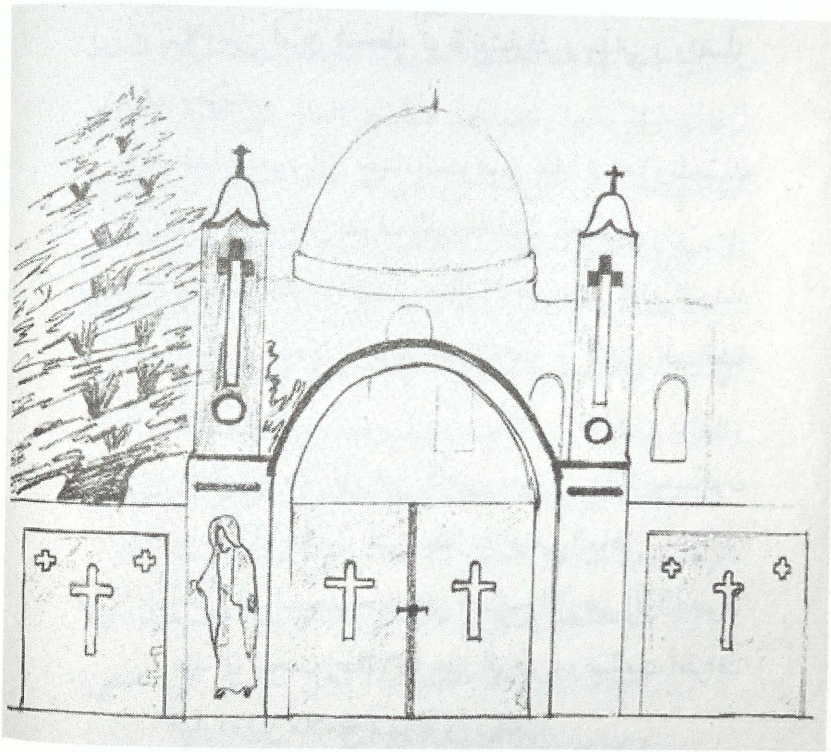

وطأت مريم صدر حيّها وطنها، ووقفت عند مدخل المساء المشرف عليه، تجدّ في منح نفسها خطوة في الأفق على حساب التحرّر من ضراوة المكبوت، لكنّها رسبَتْ في رحلة التكوين هذه، بعد اختمار غصّتها بلا مراوغة، لأنّ الزمن القديم لم يتنحّ عن الذاكرة، بل عاد ليلتصق بالعينين اللتين لم تفنَ فيهما النار. «كم أجدّ لمغادرة تلك الفسحة المشوَّهة ما بين متن الروح والضياع، إلّا أنّ الوجع المشحون بالحنكة يعروني بحزم، ليأتي بعشوائيّة زوجي مبتلّة من كيان امرأة لن يُدْركَ حطامُها بعدُ».

كان المكان نهاية قصّة ضاع فيها النبأ، وبقايا فاتورة رسا حسابها ما بين الدم ودمدمة الخطّائين. جالت مريم محاولة الإنبثاق ثانية من بين مشيب الأحلام، من بين غباء «أبو محمّد»

الذي ربط عنقه بعيدًا من داره، إلى تلك الناحية ذروة النحيب ليكسر مع غيره أوتار الأجراس في كنائسها النائية، وينهب قسمات التراتيل الهاربة من نزق الأحداث.

في حيّ الخالديّة «قلب حمص»، تشرذمت فنون الأصـوات ما بين بلبلة ناكرة للدّولة، وأخرى مؤيّدة. إنّه المكان الذي عُدَّ من أدبيّات العصيان على الهزيمة، وبحقه ردّد أبو محمّد: «الخالديّة مصنع الأبطال، وفنّ التحوّلات نحو الحقيقة والنصر». إنّه الحاضن لملجأين شيّدا ليظلّلا المواطنين في أثناء الحروب، لكنّهما لاءما اللحظة، لذا شُرّعا مقرّين أساسيّين للمنتفضين الذين تسرّبوا إلى حيّ الحميديّة، الرئة التي تتبنّى مجرى المساعدات الطّبيّة والغذائيّة إلى أحياء باب السباع والخالديّة. حيّ الحميديّة، حيّ الآثار والكنائس التاريخية «كنيسة الأربعين»، و«كنيسة أمّ الزنّار»، ومطرانيّة الروم الأرثوذكس، والتي جرّح خاطرها بعصف الجنون، بعد رفّة عين، فيه أُثكل قصر الزهراويّ، وقصر جوليا.

لقد تدافعَتْ رغبات «أبو محمّد» عند مشارف حيّ الحميديّة العالم القدسيّ الذي لا تتّسع له إلّا الحسرة الربانيّة.

هناك، حقيقة، كان جهل المسلّحين ناهبًا لاسعًا داهسًا طيف المقاعد التي تتراخى فوقَها المناجاة، ومربكًا تمثال العذراء الذي سالت منه آخر الألفاظ الممهورة بالرحمة.

إنّه الطّيش، أفنى ما كان بشحطة إجرام، داس منتصف الدرب، ولم يتوارَ خلف الخطى الخشنة، بل ظلّ ظمآن لباقي الدرب. كانت الساعة تحسم بقايا الموعد اللاعاطفيّ، فقد تجمّعت مريم، المرأة العتيقة النسب، مع زمهرير القلق عند المصطبة التي انهمرت فيها شفتاها تحسّرًا على جيران عانقوها يوم تألّقت خضرة صباحهم.

كلّ شيء أمسى طارئًا على القلب الذي يكبر المكان بثلاثين حبًّا وجرحًا وانحناءً في الحنين. لا شهقة ضوء تنسحب إلى الأروقة والمستقبل، وكلّ انتماء هناك يرشح خوفًا ينهض من بين الأعصاب ليزدحم به المكان الذي تتعاقب فيه الذكريات المأهولة بفرط الاشتياق إلى ما كان، إلى الحياة المستحبّة التي لا تُتْعِب الخيال...

طال انتظار مريم تنقّل عينيها خلف النوافذ المهترئة من رهبة الظّلمة، مرتقبة عودة زوجها مشحونًا بالورع والاستقامة،

لكنّها لم تلحظ إلّا «أبو ويليام» يجلس على رفات شرفة منزله يحتضن بقايا روحه، ليكون أيقونة مسيحيّة صامدة في سلسلة ثورة مجريات تاهت ما بين فعل اللحظة والمنطق وجموح الرغبات...